اعتبارات الخضرمة الشعرية بين القدامى والمحدثين
دراسة في العوامل السوسيو- ثقافية

The considerations of the poetic Khudrama between the ancients and the modernists: A study of the socio-cultural factors

الدكتور/ بليلة عبد القادر

قسم اللغة والأدب العربي- جامعة الشهيد حمة لخضر- الوادي- (الجزائر)
مخبر بحوث في الأدب الجزائري ونقده جامعة الشهيد حمة لخضر- الوادي

dz.eloued-univ@abdelkader-bellila

تاريخ الإيداع: 2025/10/10 تاريخ القبول: 2026/03/30 تاريخ النشر: 2026/09/15

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى النظر في المعايير المعتمدة لتصنيف الشعراء المخضرمين وفق منظور نقدي حديث؛ حيث تناقش جدلية العوامل السوسيو - ثقافية التي جعلت من الخضرمة قضية نقدية ذات أبعاد خاصة في تصنيف الشعر والشعراء. وقد تأسست الدراسة على التدرج من القديم إلى الحديث.

من خلال المنهج التحليلي، وبتحليل الاتجاهات النقدية الحديثة للخضرمة وفق بعض المحددات السوسيو - ثقافية؛ الزمان، البيئة، الدين، اللغة، توصلت الدراسة إلى أنّ المعيار الزماني للخضرمة الشعرية في النقد القديم لم يكن دقيقا لاعتبارات كثيرة؛ منها ضرورة النظر إلى اعتبار تشكيل النص بدل الاقتصار على سياقه الزماني.

الكلمات المفتاحية: شعر؛ خضرمة شعرية؛ نقد عربي؛ سوسيو- ثقافية.

Abstract:

This study aims to examine the criteria for classifying *Mukhadram* poets from a modern critical perspective. It discusses the interplay of socio-cultural factors that made *Khudrama* a key issue with specific dimensions in the classification of poetry and poets. It is based on a transition from the old to the modern view. Through the analytical method and the analysis of modern critical trends of Khudrama according to certain socio-cultural variables, such as time, environment, religion, and language, the study

concluded that the temporal criterion of the poetic Khudrama in the ancient criticism is not accurate for many considerations, such as the necessity of viewing the text's structure instead of its temporal context.
***key words**:* poetry; poetic Khudrama; Arabic criticism, socio-culture.

مقدمة:

رغم الدراسات الكثيرة التي عالجت موضوع النقد القديم، وتصنيف الشعر العربي التراثي الزّاخر، وكثرة المؤلفات والمصنفات الواردة فيه حديثا وقديما، إلا أنّ بعض القضايا ظلت بحاجة إلى تمحيص ورؤية مخالفة ومغايرة لما كانت عليه، أو من زاوية أخرى حتى تدحض شيئا من الخلاف الدّائر حولها، أو تجيب عن تساؤل ظلّ مطروحا بشأنها.

من بين القضايا النّقدية التي هي بحاجة إلى مثل هذه الدّراسات، ظاهرة الخضرمة الشعرية، والتي هي جزء من قضايا كثيرة أحاطت بالشعر العربي، وبوصفه وتصنيفه، وبتاريخه الذي شهد تحولات فنية كثيرة على مستوى مبانيه وموضوعاته؛ خاصّة أنّ تاريخ العرب لم يستقر على حال قبل الإسلام وبعده من الجاهلي غاية العباسي والأندلسي، غير أنّنا نخص بالدراسة فترة الخضرمة بين صدر الإسلام وما سبقه من اتصال زمني قريب بالعصر الجاهلي؛ أين عاش فيه الشعراء بين الجاهلية والإسلام، وتغيرت فيه سمات نظمهم بتحول الظروف والمواقف.

من هنا تتضح معالم إشكالية ورقتنا البحثية هذه حول جدل الخضرمة الشعرية، وإعادة النظر في المعايير القديمة من خلال معايير سوسيو- ثقافية خصها بعض النقاط المحدثين. فما هي الخضرمة الشعرية؟ وما الأسس السابقة لتصنيف الشعر والشاعر بها؟ وما العوامل السوسيوثقافية التي ناقشها بعض النقادي المحدثين بشأن خضرمة الشاعر وقصيدته؟

1- الخضرمة في الشعر مفاهيم ومحددات:

1-1- مفهوم الخضرمة:

تعني الخضرمة في إطارها العام أن يعيش الرجل في عصرين مختلفين؛ يبين الناقد حسن عباس معنى الخضرمة في النقد العربي: "و لما كان الإسلام أكبر نقلة في حياة العرب، وكان فارقا بين حياتين مختلفتين، سمى الرجل الذي عايش مرحلتين مخضرما، وكذلك نجدهم يرون فارقا بين الدولتين الأموية والعباسية؛ فالأولى دولة عربية، والأخرى دولة أممية، وسموا من عاش في الدولتين أيضا مخضرما. ويختفي مصطلح الخضرمة بعد ذلك؛ فلا يستعمل إلا في سبيل المجاز"[1].

من هنا، فإن الخضرمة تطلق على الرجل الذي عاش في عصرين متباينين، لكن العرف استقر على إطلاق وصف المخضرم على من أدرك الجاهلية والإسلام. ولكن حين نتتبع هذا الوصف، نجد له دلالات أخرى وإن كانت مرتبطة بما انتهى إليه العرف[2]، ففي قواميس اللغة ومعاجمها، تعددت وجهات النظر لمصطلح الخضرمة.

وتعود أصول الخضرمة في الجذور اللغوية: "بئر خِضرم: أي كثير الماء، وماء مُخَضرم وخضارم: كثير، والخِضرم: الكثير من كل شيء، وناقة مخضرمة قطع طرف أذنها، وقيل المخضرمة من النوق والشاة المقطوعة نصف الأذن، وأصل الخضرمة أن يضع الشيء بين بين، فإذا قطع بعض الأذن؛ فهي بين الوافرة والناقصة"[3].

ونجد في معجم العين: "خضرم: شُبِّه الجواد ببئر خَضرم؛ أي كثير الماء. ورجل مُخَضرم، أي ناقص الحسب. والخَضرمة: قطع إحدى الأذنين خاصة، وهي سمة أهل الجاهلية، وامرأة مخضرمة، أي مخفوضة. ولحم مخضرم: لا يُدرى أمِن ذكر هو أم من أنثى؟ والمخضرم من الناس: الذي كان عمره نصفا في الجاهلية، ونصفا في الإسلام، والخضرمة: هرم العجوز وفضول جلدها"[4].

أما معناها في قاموس "محيط المحيط"، فـ"الِخضْرم: البئر الكثيرة الماء والبحر الغطمطم، والكثير من كل شيء. ومنه قول المتنبي يمدح سيف الدولة:

يكلّف سيف الدولة الناس همّه

وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم

والِخضرم: أيضا الواسع الجواد المعطاء، وفي "الصِّحاح" الخِضرم: وهو الكثير الماء. وكل شيء كثير واسع؛ فهو خِضرم، والجمع خضارم. والمُخضرم: من لم يختتن، ومن مضى نصف عمره في الجاهلية ونصفه في الإسلام تشبيها بالناقة المخضرمة، كأنما ذهب من عمره في الجاهلية ساقط لا يعتد به، أو هو من أدرك الجاهلية والإسلام، أو شاعر أدركهما كلبيد العامري ... والناقص الحسب، والدعيُّ ومن لا يعرف أبوه، أو ولدته السراري، والطعام التافه أي لا طعم له والماء بين الثقيل والخفيف"[5].

وإنّ المتتبع للمعاجم والقواميس اللغوية، يجدها لم تستقر على مفهوم محدد للخضرمة، وإنما تناولتها من زوايا متعددة فتعددت دلالتها، وعليه سنحاول الوقوف على بعض الدلالات وتوضيحها في النقاط التالية:

- الكثرة والسعة: وردت بهذا المعنى في اللسان (بئر خِضرم كثير الماء، وماء مخضرم وخضارم كثير)[6].
وجاء في القاموس المحيط: (الخضرم كزبرج، البئر الكثيرة الماء، والبحر الغطمطم، والكثير من كل شيء)[7]. وقالوا: كل شيء واسع خضرم، والخِضْرِم: الجواد الكثير العطية[8].

- القطع: وورد في كلام العرب كما جاء في القواميس اللغوية، ناقة مخضرمة: قُطع طرف أذنها، وقيل المخضرمة من النوق والشاة المقطوعة نصف الأذن[9]. وقال الأصمعي: "أسلم قوم على إبل فقطعوا آذانها، فسمّي كل من أدرك الجاهلية والإسلام مخضرما"[10].

- الهجنة والنقص: جاءت الخضرمة بمعنى الهجين، والمختلط النسب، والذي لا تعرف حقيقة أصله؛ فاستُعمِلت لمن كان أسود وأبوه أبيض، وكذا للدّعي وناقص الحسب، ومن ولدته

السراري[11]. وتدل على النقص سواء أكان ماديا أم معنويا، ومن ذلك قولهم طعام مخضرم، إذا كان حقيرا تافها، ولحم مخضرم، إذا لم يعرف أهو من ذكر أو من أنثى؟ فاللحم لا عيب فيه لذاته، لكن الشك في مصدره يجعله أقل درجة من اللحم المعروف الأصل[12].

- المدرك لعصرين: وقد قصد بالكلمة من أدرك عهدين، فقالوا: "رجل مخضرم إذا كان نصف عمره في الجاهلية، ونصفه في الإسلام، مثل لبيد وغيره ممن أدركهما"[13]. فهذا المفهوم يمس المعنى الاصطلاحي الذي نسعى إلى تحديده.

وإذا حاولنا أن نربط بين المعاني السابقة المتصلة بالسعة والقطع والهجنة والخلط، وبين الشاعر الذي شهد عصرين مختلفين، نجد أن الصلة بين الماء المتناهي في الكثرة والسعة والمعنى الذي نريد، هو أن الرجل قد استوفى الأمرين، أمر الجاهلية وأمر الإسلام، فكان كثير المشاهد، واسع العمر، فالسعة هي الصلة الجامعة بين المعنيين. أما القطع، فصلته واضحة، فكأن الشاعر قطع عن الكفر إلى الإسلام، أما الهجنة، فمعناها وارد أيضا، فالمسلم لا يمكن أن يفاخر بدين الجاهلية، كما لا يفاخر الهجين بأصله[14].

هذا بالنسبة للخضرمة، لكن يبقى التساؤل المتبادر للذهن، من هو الشاعر المخضرم؟ هل من شهد عهدين مختلفين فحسب أم هناك تحديدا آخر؟

1-2- ماهية الشاعر المخضرم في بيئة القدماء:

إن قضية الشاعر المخضرم تحتاج إلى توضيح وتمحيص دقيقين؛ فهل نعدّ كل شاعر أدرك الجاهلية والإسلام مخضرما؟ وهل يُسَمّى شاعرا مخضرما من أدرك الجاهلية والإسلام ولم يقل شعرا في الجاهلية وكل شعره كان في الإسلام؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما الفارق بين هذا الشاعر والشاعر الذي نشأ في الإسلام؟ فكلاهما كان شعره في الإسلام وحده، ومثل هذا يقال عن شاعر أدرك الجاهلية والإسلام لكنه لم يقل شعرا في الإسلام، وإنما كان شعره كله في الجاهلية، هل يسمى شاعرا مخضرما؟ وإذا كان كذلك، فما الفارق بين هذا والشاعر الجاهلي الذي لم يدرك الإسلام؟ فكلاهما كان شعره في الجاهلية وحدها.

في هذا السياق، نعرض بعض الأقوال التي تبين معنى الشاعر المخضرم. فالرجل المخضرم عند أهل اللغة ومنهم صاحب "المحكم" هو من كان نصف عمره في الجاهلية ونصفه الآخر في الإسلام، وهذا ما ذهب إليه الجوهري في "الصّحاح" أن المخضرم هو "الذي أدرك الجاهلية والإسلام مثل لبيد"[15]، ولم يشترطوا لذلك صحبة ولا إسلاما. ويقول ابن قتيبة: "وإنما يكون مخضرما إذا أدرك الإسلام وهو كبير، فلم يسلم إلا بعد الرسول الله ﷺ"[16]. وهو في هذا يُسقط من مفهوم المخضرمين الشعراء الذين أسلموا في عهد الرسول - ﷺ - وهم كثرة المخضرمين، وهذا

التحديد هو قريب من تحديد أهل الحديث للمخضرم، فقد قال "السيوطي" في شرح "التقريب": "المخضرم في اصطلاح أهل الحديث هو الذي أدرك الجاهلية وزمن النبي ﷺ ولم يره"[17].

ومعنى هذا أنّ للخضرمة عند أهل الحديث شروطا أربعة هي:

- إدراك الجاهلية.
- إدراك الإسلام.
- عدم الصحبة.
- أن يكون الإسلام في عهد النبوة[18].

والإخلال بشرط من هذه الشروط يخرج عندهم من حد الخضرمة، فلا بد من إدراك الجاهلية، ولا بد من الإسلام، واشترطوا عدم الصحبة؛ لأن من كانت له صحبة خرج من حد الخضرمة وعدّ من الصحابة، واشترطوا الإسلام في عهد النبوة، لأن من أسلم بعد ذلك عُدّ من التابعين. ولو نعتمد هذا التعريف، لأسقطنا الغالبية العظمى من الشعراء المخضرمين، وفي مقدمتهم شاعرنا "حسان بن ثابت"، وبهذا تكون الخضرمة عند أهل اللغة والأدب أعم، فهم لا يشترطون في الشاعر المخضرم سوى أن يكون قد أدرك الجاهلية وعايش الإسلام، ولا يشترطون صحبة ولا إسلاما.

2- المحددات السوسيوثقافية للخضرمة الشعرية:

للمحدثين في الشاعر المخضرم منظورهم الخاص، فقد عبّر الدكتور "محمد إبراهيم جمعة" عن رأيه في ذلك بقوله: "من أدرك الجاهلية والإسلام، وأنشد شعرا إسلاميا متأثرا بالدين الجديد وأحداثه كحسان بن ثابت، والنابغة الجعدي وكعب بن زهير، أما الجاهلي الذي أدرك الإسلام ولم ينشد شعرا، أو لم ينشد غير بيت كلبيد، أو أنشد شعرا غير متأثر بالعهد الجديد، ولا يكاد يختلف في طوابعه عن جاهليته كالخنساء والحطيئة، وغيرهما فإنه لا يعدّ من طبقة المخضرمين"[19].

وهذا القول فيه نظر، فكيف لنا إخراج لبيد من زمرة الشعراء المخضرمين، فحين نجد الجوهري يضرب به المثال في صحاحه؟ وكيف نخرج الخنساء والحطيئة وكلاهما أسلم وقال شعرا في الإسلام؟ إضافة إلى أنه اشترط التأثر بالإسلام؛ فأين نعد شعراء اليهود والنصارى الذين عاشوا في هذه الفترة، ولم يسلموا أصلا؟ ولعل هذا الرأي متأثر بما جاء به "شوقي ضيف" في كتابه "العصر الإسلامي"؛ حيث يقول: "مما لا ريب فيه أن شعراء القبائل ظلوا ينظمون شعرهم بالصورة الجاهلية إلى أن دخلوا في الإسلام، وكان الموت قد سبق إلى كثير منهم، فماتوا قبل إسلامهم، وحري بهؤلاء أن يدخلوا في غمار الجاهلية، فهم ليسوا مخضرمين بالمعنى الصحيح للخضرمة"[20].

علّق الدكتور حسن عباس عن ذلك بقوله: "وهذه مغالطة منطقية، فالشعراء الذين عاشوا في الجاهلية وقالوا فيها شعرا، ثم عاشوا في صدر الإسلام وقالوا فيه شعرا، هم شعراء

مخضرمون من غير شك أسلموا أو لم يسلموا"[21]. ومن هذا التعليق نستنتج أنه لا علاقة للدين بالخضرمة في قول الشعر؛ فالشرط الأساس هو قول الشعر في المرحلة الجاهلية وفي المرحلة الإسلامية.

وإذا تتبعنا أهم التعاريف عند المحدثين، وجدناه عند هنية الكاديكي حين تقول في شأن الشاعر المخضرم: "إن الشاعر المخضرم - كما نراه - هو الذي أدرك الجاهلية والإسلام، وأنتج في الإسلام شعرا، سواء أسلم أولم يسلم، ولا يعيبه عدم تأثر شعره بالإسلام إذا غلبت عليه الرواسب الجاهلية، فلا نسقط من سلك المخضرمين الذي مات قبل إسلامه، ولا لبيد الذي لم ينتج شعرا كثيرا بعد إسلامه، ولا الحطيئة والخنساء وغيرهما لغلبة الطبائع الجاهلية عليهم"[22].

يعدّ هذا المفهوم مقنعا، غير أنّ بشيء من التمحيص في قولها: (وأنتج في الإسلام شعرا) يدعو إلى التساؤل: هل يكفي قول الشعر في الإسلام فقط حتى لو لم يقل شعرا في الجاهلية؟ فلو أن رجلا عاش في الجاهلية وأدرك الإسلام شيخا، ونجم له شعر في الإسلام، هل نعدّه مخضرما؟ الجواب: لا، لأنّ الشاعر المخضرم من قال الشعر في الجاهلية والإسلام.

ومن هذه الأقوال، نخرج بأنّ هناك فرقا بين أن نقول: هذا رجل مخضرم، وأن نقول: إن هذا شاعر مخضرم، فالأول يقصد بخضرمته أنه جمع بين الدينين، دين الجاهلية ودين الإسلام. أما حين نتحدث عن شخص بوصفه شاعرا، فنقول: إنه مخضرم، فالخضرمة هنا منصبة على شاعريته لا على تدينه، أي أن شعره تناول العهدين عهد الجاهلية وعهد الإسلام[23].

ومنه يمكن إبراز ملامح الشاعر المخضرم في النقاط الآتية:

- أن يكون عاش في عصرين، عصر الجاهلية وعصر الإسلام، لأن من عاش في عصر واحد لا يُعدّ مخضرما، إنما يُعدّ جاهليا أو إسلاميا.
- أن يكون له نصيب من الشعر في العصرين (الجاهلية والإسلام)؛ أي له قدر صالح من الشعر في الجاهلية وله قدر صالح من الشعر في الإسلام، لأن من عُرف بالشعر في الجاهلية، وأخرس عنه لسبب من الأسباب في الإسلام؛ فهو شاعر جاهلي من غير شك، والذي عاش في الجاهلية ولم يُعرف بالشعر إلا بعد الإسلام، فهو شاعر إسلامي.
- لا تشترط الصحبة - صحبة النبي ﷺ - في الشاعر المخضرم، قد يكون الشاعر صحابيا، وهو في الوقت نفسه مخضرم، مثل شاعرنا "حسان بن ثابت" عكس ما جاء به أصحاب الحديث، فهو شاعر مخضرم وله شرف الصحبة.
- لا دخل للدين في الخضرمة؛ فالشاعر الذي شهد عهد الجاهلية وبقي على دينه فهو مخضرم، حتى لو لم يتأثر بالدين الجديد، وبقي نظمه للشعر على نمطه الجاهلي. فالخضرمة لا تطلق

إلا على الشاعر الذي له شعر في الجاهلية وشعر في الإسلام، حتى تتحقق الخضرمة في شعره، فالخضرمة في الشعر غير الخضرمة في الدين[24].

ومن خلال ما سبق، يمكن أن نخرج بمفهوم يُقرب صورة شعر الشاعر المخضرم في الأذهان؛ فالتعريف الذي نرتضيه هو الشاعر الذي عُرف بالشعر في عصر الجاهلية، ثم عاش في صدر الإسلام وقال فيه شعرا، ولا يُشترط بعد هذا أن يكون الإسلام قد أثّر في شعره أو يكون قد أسلم أصلا. فشعر المخضرمين - إذن - هو ذلك الفن الذي عاش مع صاحبه في الجاهلية ورافقه في الإسلام.

أما يحي الجبوري في كتابه شعر المحضرمين وأثر الإسلام فيه، فقد اعتمد تقسيما مخالفا ينطلق من البيئة والديانة إلى ثلاث بيئات: المدينة وشعراؤها، ومكة وشعراؤها، والطائف والقرى اليهودية، وقسمهم داخل هذا التقسيم تقسيما آخر على مستوى ديني؛ شعراء المسلمين وشعراء المعارضة من المشركين وشعراء اليهود، ويمكن أن نفصل ونذكر أمثلة عن هذه الدراسة كالتالي:

- شعر المسلمين: ويندرج تحته المدينة وشعراؤها من المهاجرين والأنصار
- شعراء المعارضة: ويندرج تحته شعراء مكة والطائف والقرى اليهودية.

وفي الجدولين التاليين تتضح التقسيمات وأهم الشّعراء الذين خصهم الدكتور يحي الجبوري بالدراسة

الجدول01: تقسيم الشعراء المخضرمين عند يحي الجبوري حسب الإسلام

شعر المسلمين	
المدينة وشعراؤها	
شعر الأنصار	شعر المهاجرين
حسان بن ثابت، كعب بن مالك، عبد الله بن رواحة	عبدالله بن جحش، أبو أحمد عبدالله بن جحش، عثمان بن مظعون، عبدالله بن الحارث السهمي، عبدالله بن حذافة، هند بنت أثاثة، صفية بنت عبد المطلب، نعم بنت سعيد.

المصدر: (دراسة يحي الجبوري، شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه)

يقدم الباحث لنا لمحة تعريفية بالشاعر ويذكر أهم المحطات التي عايشها مركزا على الفترة الإسلامية من حياته مستشهدا ببعض الأبيات التي تمثل مواقفه في المناسبات المختلفة، فعندما يتحدث عن حسان بن ثابت مثلا يعرف به وبمكانته في الجاهلية والإسلام حيث يستشهد بقول أبي عبيدة: "فضّل حسان الشعراء بثلاث: كان شاعر الأنصار في الجاهلية، وشاعر النبيّ أيام النبوة، وشاعر اليمن كلها في الإسلام"[25].

وبعدها يقدم لنا نماذج مختلفة من أشعاره، كأن يقول: "ولحسان في كل مناسبة إسلامية قصيدة أو قصائد، ومن جياد قصائده التي كان لها أبعد الأثر، وأحسن الذكر عند المسلمين قصيدة الفتح"[26]، والتي مطلعها:

عفتْ ذاتُ الأصابعِ فالجواءُ

إلى عذراءَ منزلها خلاءُ[27]

ويذكر خلال شرحه لأبيات القصيدة، البيتين التاليين ليستخرج التأثير الإسلامي والديني لدى الشاعر:

وَجِبْرِيلٌ رسولُ اللَّهِ فِينَا

وَرُوحُ القُدْسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ

وَقَالَ اللَّهُ: قَدْ أرْسَلْتُ عَبْداً

يقولُ الحقَّ إنْ نفعَ البلاءُ[28]

وهكذا دأب الباحث مع سائر الشعراء في دراسته

الجدول01: تقسيم الشعراء المخضرمين عند يحي الجبوري حسب المعارضة

شعر المعارضة		
مكة	**الطائف**	**اليهود**
عبد الله بن الزبعرى، ضرار بن الخطاب، هبيرة بن أبي وهب، أبو سفيان بن الحارث، الحارث بن هشام، أبو عزة الجمحي، أبو أسامة معاوية بن زهير، أبو بكر شداد بن الأسود، مسافع بن عبد مناف، عمرو بن العاص، هند بنت عتبة، صفية بنت مسافر ....إلخ	أمية بن أبي الصلت، أبو محجن الثقفي، كنانة بن عبد ياليل.	كعب بن الأشرف، سماك اليهودي، جبل بن جوال الثعلبي، مرحب اليهودي، أوس بن ذني القرظي

المصدر: (دراسة يحي الجبوري، شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه)

لم تختلف دراسته لشعراء المعارضة عن شعراء المسلمين فقد اتخذ النهج ذاته من خلال التعريف بالشاعر وذكر أهم المحطات البارزة في شعره، كما فعل مع ابن الزبعرى الذي اعتبره أول

الشعراء المكيين وأبرزهم؛ حيث يقول فيه نقلا عن الأغاني أنه "ألمع شعراء قريش وأشدهم عداوة للمسلمين، وهجاءً لهم وتحريضا عليهم"[29]، وهو مقدم في شعره على شعراء مكة، وقيل كان أشعر الناس وأبلغهم، ويقولون إنه أشعر قريش قاطبة. ثم بعد ذلك يضرب أمثالا من شعره، ويقدم شرحا، ويذكر المناسبة في الغالب.

ولعل أعنفها تلك التي دارت بين "حسان" و"عبد الله بن الزبعرى بعد غزوة أحد، ويقول هذا الأخير في قصيدة مطلعها (من الرمل):

يا غُرابَ البَيْن أُسْمِعْتَ فَقُلْ

إِنَّما تَنطِقُ شيْئًا قَدْ فُعِلْ

ثم يُوجِّه القول إلى "حسان" ويدعوه أن ينظر إلى كثرة القتلى، ويفخر بمن قتلوه يومئذٍ، فيقول[30]:

أَبْلِغا حَسّانَ عَني آيةً

فقَريضُ الشِّعْرِ يَشْفي ذا الغُلَل

كمْ قتَلْنا مِن كَريمٍ سَيِّدٍ

مَاجِدَ الجَدَّيْنِ مِقْدامٍ بَطَل

إلى أن يقول:

لَيْتَ أَشْيَاخِي بِبَدْرَ شَهِدُوا

جَزْعَ الخَزْرَج مِنْ وَقْعِ الأَسَل

ويجيبه حسان في مناظرة رائعة تظهر انتصار كل شاعر لفريقه، فينسب الفضل في هذه الموقعة إلى المسلمين، ويصوِّر بلاءهم وصدق حملتهم، مع إقراره بأن الحرب دول، ويُذّكر المشركين بهزيمتهم يوم بدر، فيقول (من الرمل) كذلك في قصيدة مطلعها[31]:

ذَهَبَتْ بابْنِ الزِّبَعْرَى وَقْعَةٌ

كانَ مِنَّا الفضْلُ فيها لو عَدَلْ

بهذه الطريقة سار الدكتور يحي الجبوري في تقديمه لشعراء الطائف واليهود. لكن الملفت للنظر، أن هذه الدراسة لم تخص الشاعرات المخضرمات بعنوان خاص، وإنما تم إدراجهن عرضا في دراسة الشعراء، وهذا ما تفطن له الدكتور حفنى في كتابه الشعراء المخضرمين؛ حيث أفرد لهن عنوانا تحت اسمهن سماه بالشواعر المخضرمات، وعرض خلال دراسته للشواعر المشهورات

كالخنساء وهند بنت عتبة. كما لم يغفل شواعر المناسبات المختلفة وشواعر المغازي، كقتيلة بنت الحارث القرشية، فاطمة بنت الأحجم الخزاعية، وعاتكة بنت زيد بن عمر القرشية وغيرهن[32].

وقد شابهت دراسته دراسة يحي الجبوري في طريقة عرضه للشواعر، فمثلا عندما يتحدث عن الخنساء، يذكر مكانتها الشعرية؛ حيث يقول: "يتفق رواة الأدب ونقاده على أنها لم تكن قبلها ولا بعدها امرأة كانت أشعر منها"[33]. ونجده يقول كذلك: "وكانت فوق ذلك مشهورة بالاعتداد بنفسها وبرأيها وقد أعانها على ذلك نشأتها ومعيشتها في بيت جمع كل مقومات العزة، والتي كانت تتمثل في السيادة الفروسية والشعر"[34].

وبعد ذكره لمؤهلات الشاعرة ومميزاتها، يضرب جانبا من أشعارها المشهورة، ويقوم ببعض الشرح والتحليل واستخراج جانب من المآثر، كما فعل مع مرثيتها لأخيها صخر التي مطلعها:

أعيني جودا ولا تجمدا

ألا تبكيان لصخر الندى

وعليه يمكن القول: إن في الدراستين تم تقسيم الشعراء المخضرمين ليس على معطيات جودة فنية أو فحولية كما كان التقسيم القديم للشعراء، وإنما تم التقسيم على اعتبارات بيئية ودينية ولغوية، وهذا ما يعكس الرؤيا السيو- ثقافية.

خاتمة:

بعد تسليط الضوء على ظاهرة الخضرمة الشعرية لاعتبارات الزمنية التي اعتمدها القدامى، ثم النظر إليها وفق أسس ومحددات سوسيوثقافية حديثة اعتمدها نقاد معاصرون، استخلصنا النتائج الآتية:

- حظي الشعر القديم باعتبارات نقدية كثيرة في تصنيفه وتصنيف ناظميه، وكان من الاعتبارات الزمنية والتصنيفات، ما عرف بالخضرمة الشعرية أو الشعراء المخضرمين. ومنذ ذلك التأسيس أصبح المصطلح معيارا زمنيا للنظر في النص وصاحبه.

- أخذ النقاد القدامى عامل الزمن محددا للخضرمة في الشعر، وكان مجيء الإسلام فاصلا في ذلك بعيد عن اعتبارات أخرى كاللغة؛ أي الفصاحة، وكالنسب والبيئة وغيرها. وإن كان هذا يعد ضابطا ثابتا وموحدا للتصنيف، إلا أنه افتقر إلى شيء من الموضوعية بترك عوامل أخرى تؤثر في الشعر والشاعر، فتصنع منه مخضرما.

- تحتاج الاعتبارات النقدية التراثية للخضرمة إلى معايير ومحددات أخرى سوسيوثقافية لتصنيف الفن والإبداع، وهذا ما يتماشى مع الطرح النقدي المعاصر في النظر للنص داخليا وخارجيا بدل الاقتصار على سياقه الزماني فحسب.

- حاول بعض المحدثين والذين قدمتهم الدراسة إعادة إسقاط المعايير النقدية الحديثة على ظاهرة الخضرمة الشعرية، وهذا ما شأنه بناء تأسيس منهجي متكامل يجمع النقد القديم بالحديث.

الهوامش:

1 - حسن عباس، قضايا الشعر في صدر الإسلام، دار الشاعر للطباعة، طنطا، دط، 2004، ص80.

2- عبد الحليم حفنى، الشعراء المخضرمون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 1983، ص8.

3- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، مج5، ط3، 2004، مادة خضرم، ص91.

4- الخليل بن أحمد الفيراهيدي، العين، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، مج1، ط1، 2003، ص416.

5- بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان ناشرون، ساحة رياض الصلح، بيروت، دط، 2003، ص238.

6- ابن منظور، لسان العرب، مادة (خضرم)، ص91.

7- مجد الدين الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ط2، مادة (خضرم)، ج4، ص108.

8- ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (خضرم)، ص91.

9- ينظر: المصدر نفسه، مادة (خضرم)، ص91.

10- ابن قتيبة، المعارف، المكتبة الإسلامية، مصر، ط1، 1934، ص249.

11- ينظر: يحي الجبوري، شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط5، 1998، ص54.

12- ينظر: عبد الحليم حفنى، الشعراء المخضرمون، ص09.

13- ابن منظور: لسان العرب، مادة (خضرم)، ص91.

14- ينظر: يحي الجبوري، شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، ص(54، 55).

15- الجوهري، الصحاح، مادة (خضرم).

16- ابن قتيبة، المعارف، ص249.

17- عبد القادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، طبعة بولاق، 1299، ج1، ص245.

18- ينظر: عبد الحليم حفنى، الشعراء المخضرمون، ص19.

19- حسن عباس، قضايا الشعر في صدر الإسلام، ص88.

20- شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص46.

21- حسن عباس، قضايا الشعر في صدر الإسلام، ص89.

22- المرجع نفسه، ص(92، 93).

23- ينظر: عبد الحليم حفنى، الشعراء المخضرمون، ص(19، 20).

24- ينظر: المرجع نفسه، ص22.

25- الأصبهاني، الأغاني، ج4، ص136.

26 - يحي الجبوري : شعر المحضرمين وأثر الإسلام فيه، ص69.

27 - عبد الرحمان البرقوقي، شرح الديوان، ص58.

28 - حسان بن ثابت، الديوان، تح: وليد عرفات، ص18.

29 - الأغاني ج15، ص 179.

30- عبد الرحمان البرقوقي، شرح الديوان، ص(357، 358).

31- المرجع نفسه، ص358.

32 - ينظر: عبد الحليم حفني، الشعراء المخضرمون، ص 174-194.

33 - نفس المرجع، ص174.

34 - نفس المرجع، ص 176.

قائمة المراجع:

1- ابن قتيبة، المعارف، المكتبة الإسلامية، مصر، ط1، 1934.

2- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، مج5، ط3، 2004.

3- بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان ناشرون، ساحة رياض الصلح، بيروت، دط، 2003.

4- حسن عباس، قضايا الشعر في صدر الإسلام، دار الشاعر للطباعة، طنطا، دط، 2004.

5- الخليل بن أحمد الفيراهيدي، العين، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، مج1، ط1، 2003.

6- عبد الحليم حفني، الشعراء المخضرمون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 1983.

7- عبد القادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، طبعة بولاق، 1299، ج1.

8- مجد الدين الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ط2، مادة (خضرم)، ج4.

9- يحي الجبوري، شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط5، 1998.